لو لم يأتنا المسيح ؟؟

« لو لم اكن قد جئت »

(يو١٥:٢٢)

عظة ألقاها الواعظ الموهوب چورج تروت

(May 6, 1867 – July 7, 1944)

إن التاريخ ليموج بالأشخاص الذين لمعوا في العالم ثم انطفأوا كالشهاب الساقط. فنابليون الذي دوخ ممالك بأسرها، وألقى الرعب في قلوب الأقطار عامة، كان مآل حياته النفي في (البا) سنة 1814 وبعد ذلك بسنة وعلى التحديد في مارس سنة ١٨١٥ رجع إلى فرنسا المشهد الحوادث التي شغلت بال أوربا بأسرها أثناء نفيه في (البا). فارسل لويس الثامن عشر جيشا على نابليون فما أن رأي الجند حتى صاح تلك الصيحة المدوية وكشف عن صدره قائلا لهم: « هاكم صدري الأعزل أيها الفرنسيون واضربوا امبراطوركم » فكان الهتاف يشق عنان السماء: « يحيا الإمبراطور! » ذلك أغرب مشهد شهده التاريخ عند رجوع رجل كان يظن أن نجمه قد أفل.

ظهر في عالم المطبوعات منذ وقت كتاب من تأليف العلامة « وليم استيد » الذي ذهب ضحية الباخرة « تيتانك » وكان عنوان ذلك الكتاب « لو جاء المسيح إلى شيكاغو» وأنه لكتاب ثمين بحق. والإنسان يحس وهو يقرأه أنه ركب متن الخيال الواسع وواجه الحقائق التي تجعل القلب والوجدان يفيضان بالعزاء والسرور. «لو جاء المسيح إلى شيكاغو» ماذا يرى وماذا يسمع وإلى أي مكان يذهب وماذا يفعل؟

والآن لنسأل إذا جاء المسيح إلى « دالاس » اليوم أو غدا أو في صباح عيد الميلاد - أين يذهب، وعند من ينزل، وعلى أي باب يقرع؟ آه! يا نفسي أيقرع على بابك؟

أجل، إن السؤال الجدير بالتفكير العميق هو ماذا يكون الأمر لو لم يكن المسيح قد جاء إلى « دالاس » أو « شيكاغو » أو « نيويورك » أو « لندن » أو « أمريكا » أو « أوروبا » أو « آسيا » أو « أفريقيا » أو « جزر البحار؟ ». ماذا يكون لو لم يأت؟ لقد أنار هذا السؤال بنفسه في الليلة السابقة لتسليمه إذ قال: « لو لم أكن قد جئت...» هلم نأخذ جناحي الفكر ونحلق في سماء الخيال متسائلين: « لو لم يأتنا المسيح؟! »

لقد جاء المسيح منذ ألفي سنة فانطبعت تعاليمه وشخصيته ومثله على كل مناحي الحياة وأضحى مقياس الكمال لا يقاس بأي تعليم سوى تعليمه، ومقياس التضحية لا يعرف مثالا أعلى من صليبه. بل لقد تغلغلت روحه وبسط جناحية على الأدب، والقانون، ونظام الحكم والتدين، والفن والموسيقى، حتى لقد تأثرت هذه جميعها بروحه. فما لو لم يكن قد جاء، وأين يكون العالم الآن؟ وماذا يفعل الناس له تصور معي حالة العالم عندما ولد، والحالة الرهيبة التي كانت تثقل كاهل البشرية آنذاك مثل كابوس مفزع على صدرها، فمنذ الفي سنة عندما جاءنا بالجسد كان ثلاثة أخماس العالم يرسف في أغلال الرق والعبودية. ورنين السلاسل كان يقرع الأسماع في أرجل العبيد وهم يسامون العذاب ويركلون بالأرجل كالكلاب ويباعون ويشترون كالثيران. وكان هنالك قانون بين الرومان أنه إذا قتل إنسان ثورة فعقوبة الموت تكون جزاءه لهذا الذنب الفظيع، وكان الرق سائدا في كل البلاد حتى إن عددا كبيرا من الأسياد، كان السيد

الواحـد منهم يتخـذ لنفســه عشـرة آلاف أو عشـرين ألـف نفس من العبيد. لكن بمجيء المسيح دقت أجراس المـوت تنعي هـذه القسـوة ورفـرفت رايـة المسـاواة وعلا صـوت الحرية فرددته جميع الأبصار والأقطار.

ثم ألق بنظرة إلى الطفولة قبل مجيء المسيح فقد كـانت تعتـبر عبئـا ثقيلا وحملا باهظـا تنوء به أكتاف الآباء والأمهات ولكن يا له من تغييرا لقد أضحى الطفل الصغير أعـذب ما تصبو إليه النفوس في العالم كله بل أعذب نغمـة موسيقية هي ضـحكة طفل. وأمجـد الرؤى بـل أجملهـا هي ابتسـامة طفل. ذلـك لأن المسيح قـد غير نظرتنـا للطفل. ولهـذا جاءت العناية بالطفل في المؤسسات المختلفة من ملاجئ ومستشفيات ومدارس.

.ثم تأمل في حالة المـرأة. لقـد كـانت تحمـل أحمـال الجمـال بـل إن الرجـل الواحـد كـان يجمع في بيت واحد عددا عديدا يستخدمهن ويسوقهن بـل يسـومهن العـذاب كالحيوانـات بل كالثيران في جر العربات أو المحراث. كل هذا قد ذهب بمجيء المسيح!

فأي امرأة لا تدين بالولاء للمسيح لأنـه رفع من شأنها وقـد كـانت قبلا من سـقط المتـاع. إنــه لم يوجـه أي كلمـة تشـتم منهـا القسـوة على المـرأة. حـتى إن المـرأة الـتي أتى بهـا المختالون بطهارتهم وببرهم الـذاتي كـان يكتب خطايـاهم على الأرض إلى أن انسحبوا الواحد وراء الآخـر فلمـا اختفـوا جميعـا واجـه المـرأة قـائلا: « يـا امـرأة أين هم أولئـك المشتكون عليكِ؟ أما دانك أحد؟ فقالت: لا أحد يـا سيد. فقـال لهـا يسـوع ولا أنـا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضـا». لقد رفع المسيح مكانة المرأة وبذلك ارتفعت مكانة البشرية.

لقد صـاح سـقراط قـديما فـرددت الأجيـال صـيحته قـائلا: « من لنـا بإلـه أو بإنسـان فيـه روح الإله يعلمنا واجبنا أو يعيننا لكي نحيـا كمـا ينبغي !!» هـذه صـيحة الأجيـال تنشـد شخصـا أعلى وأرفع وأقدر.

لقد سألوا المسيح قبل أن يعرفوا شخصيته: أرنـا الأب وكفانـا فكـان جوابـه « أنـا معكم زمانـا هـذه مدتـه ولم تعرفـني يـا فيلبس؟ الـذي رآني فقد رأى الآب » لقد جـاء المسيح ليعلن لنا عطف الأب السماوي ومحبتـه وإحسـانه. « لا تخـافوا. هـا أنـا أبشـركم بفـرح

عظيم يكون لجميع الشعب. إنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب » فرح لجميع الشعب - السود والبيض، الأغنياء والفقراء، النبلاء والمغمورين الشرفاء والأدنياء. المحترمين والمحتقرين. فماذا لو لم يكن قد جاء؟! ما كنا نتمتع بجواهر الحكمة السماوية المعلنة لنا في تعاليمه وأمثاله وإعلانه عن الله. وما كنا لنجد القصص العالية في الإنجيل عن شفاء المرضى، وإقامة الموتى، وتطهير البرص وكلها تفيض حنانا على البشرية المعذبة. ما كنا لنعرف احتمال الضعفاء، وهداية الضالين، ومواساة الحزاني، وجبر منكسري القلب. . وإغاثة البؤساء. أين كنا نطالع تلك الجوهرة المكنونة المختزنة في مثل الابن الضال؟ وأين كنا نقرأ تلك القطعة الرائعة الخالدة عن السامري الصالح؟ هنالك اكتشف السر في من هو قريبي فاعرف أن كل شخص في العالم يحتاج إلى معونة مني. فقد يكون ملاصقا لداري، وقد يكون بعيدا عني بفراسخ. قد يكون زنجيا أو أحمر أو أصفر أو أبيض من جنسي أو من جنس آخر من ديني أو من دين آخر في أفريقيا أو في الصين في اليابان أو في الهند أو في أمريكا. جاري هو كل من يحتاج إلى معونتي. لا تستطيع أن تلم أذيالك وتغطي وجهك قائلا: «وماذا يهمني من أمر هذا أو ذاك؟!» إنه يهمك مهما حاولت أن تتنصل من المسؤولية وسترى يوم الدين عندما تقف أمام الله للحساب أنه كان يهمك. إننا في هذا العالم في حزمة واحدة مع أسرة الإنسانية جمعاء وكل منا له نصيب في اسعادها أو إشقائها.

وما كنا لنضع القيم الروحية للأمور. إذ من اليسير أن نظن خطأ أن الحياة تقاس بالذهب والأسهم والسندات والبيوت والأطياب والمخازن والممتلكات. لكن المسيح جعل للحياة ثمنا أعلى إذ قال: « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ».

والمجد الصحيح للمدنية الحقيقية هي نوع الناس الذين تنجبهم المدنية لا ناطحات السحاب ولا العمارات الشاهقة، ولا مخازن الحنطة المكدسة بالغلال، ولا الذهب الذي يملأ مصارفها، فإذا انصرفت المدنية إلي هذه الأمور وأهملت ذلك الطفل اللاجىء تحت تلك العرية وهو ينتفض من البرد القارس فهي مدنية زائفة.

لو لم يأت المسيح لم تكن هناك كفارة عن الخطية. لقد رسفت البشرية في قيود الخطية تلك الأحقاب وهي تعذب نفسها تارة وتقدم مختلف القرابين والذبائح طورا آخر لعلها تهديء من روع نفسها المضطربة وضميرها العذب. لكن المسيح بالصليب قد هدأ روع النفس وأزال اضطرابها.

يارب لا تسمح بأن أفخـــر إلا بالصليب

مكرس نفسي وما أملك للفادي الحبيب

لو لم يأت المسيح لم يكن هناك رجاء يلمع وراء ظلمة القبر. فقد كانت الخليقة تظن أن القبر هو خاتمة المطاف في رحلة الحياة لكن المسيح أنار لنا الحياة والخلود بواسطة إنجيله فقال لمريم ومرثا: « سيقوم أخوك. أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد ». وثلاثة تشغل بال الإنسان هي: الحياة والموت والأبدية. ويسوع المسيح وحده أعطانا الخبر اليقين والقول الفصل الذي لا ريب فيه عن كل واحدة من هذه الثلاث. فلا ترهب ولا تضطرب يا صديقي لأنه قال: «أنا حي وكنت ميتاً وأنا حي إلى أبد الآبدين» ففي الحياة هو زميلك وفي الممات هو ضامن الخلود وفي الأبدية هو أعد لك مكانا حتى حيث يكون هو تكون أنت.

يا أصدقائي: ألا تفرح قلوبكم لأن المسيح قد جاء وهو يجول الآن بين صفوفكم ليخلص ويبارك ويقوي كل من يؤمن به. وسيأتي مرة ثانية ليدين العالم بالحق والبر. فها الفرصة الذهبية سانحة لك لكي تتخذ موقفك معه وتنضوي تحت لواء حبه. فهيا تعال متضعاً تائباً واثقاً فيقبلك ويباركك الآن وإلى الأبد.

ترتيب وتنسيق الاخ / صفوت زكي سمعان

الرب يبارك هذه العظة لمجد اسمه